تلقي الفكر الاستشراقي عند طه حسين

بين هيمنة الثقافة وسلطة المنهج

Receiving Orientalist thought to Taha Hussein Between the dominance of culture and the authority of the curriculum

نوال قرين*

تاريخ الإرسال: 2020/03/02	تاريخ القبول:2020/07/17	تاريخ النشر:2020/12/30

الملخص:

نشط الاستشراق الفرنسي تحديدا قبل الحملة النابوليونية على مصر وبعدها؛ نتج عنه تأثر البعثات العلمية المصرية التي أرسلت إلى فرنسا بأعلام الاستشراق خاصة "لوي ماسنيون" Louis Massingon(1883م-1962م)، و على رأس هؤلاء المتأثرين عميد الأدب العربي "طه حسين".

فقد ظهر فكر طه حسين في نهاية الربع الأول من القرن العشرين، و كأنه سهم افترع عذرية الخمول التي يحتمي بها الفكر العربي، و منذ ذلك الحين تفجرت حوله مواقف متباينة، أفضت إلى ظهور قراءات متضادة لفكره ورؤيته و دوره في الثقافة العربية الحديثة، فانتظم حوله ضربان من القراءة: قراءة أولى اعتبرته مهدّدا لمنظومة القيم الدينية و الفكرية و الأدبية الموروثة، و قرأته ضمن سياق ثقافي له مقولاته المستقرة الثابتة التي احتجبت وراء تصورات دينية وفكرية محددة، و قراءة ثانية ادرجت طه حسين ضمن مشروع التحديث واعتبرته رمز التنوير في الثقافة و الفكر العربي، و قرأته ضمن المقولات التي ظهرت و شاعت في أروبا خلال القرنين الثامن و التاسع عشر و هي الحقبة التي عرفت بعصر التنوير، و ظهر؛ بل و ازدهر فيها الاستشراق الأروبي بمدارسه المختلفة.

المؤلف المرسل: نوال قرين **nawal_krine18@yahoo.com**

* **جامعة قاصدي مرباح -ورقلة- nawal_krine18@yahoo.com**

ومن ثم كانت إشكاليتنا الجوهرية التي نطرحها في مقالنا هذا، ما مدى تأثر طه حسين بالفكر الاستشراقي؟ وهل الاستشراق عنده مثاقفة أم استلاب فكري؟ وما هي المعايير المنهجية والفكرية التي تم التأسيس عليها في كتابة ومن ثمة تلقي فكر طه حسين؟ وهل التقيد بالأدوات المنهجية يعني الخروج عن الأعراف و الأنساق الثقافية السائدة؟ أم أنه يحق للفكر المهيمن ثقافيا الحد من الأدوات المنهجية؟

الكلمات المفتاحية: الفكر الاستشراقي، طه حسين، مبدا المقايسة، المماثلة.

Abstract:

French Orientalism was particularly active before and after the Napoleonic campaign on Egypt. As a result, Egyptian scientific missions sent to France were influenced by Oriental scholars, especially Louis Massingon (1883-1962 AD), headed by the Dean of Arabic Literature, Taha Hussein.

Taha Hussein's thought appeared at the end of the first quarter of the twentieth century, as if it was an arrow that invented the virginity of inactivity with which Arab thought is protected, since then, different positions have exploded around him, which led to the emergence of contradictory readings of his idea, vision, and role in modern Arab culture.

Two types of reading were organized around him: a first reading considered a threat to the inherited system of religious, intellectual and literary values, and read it within a cultural context that has its stable sayings that have hidden behind specific religious and intellectual perceptions, and a second reading included Taha Hussein in the modernization project and considered it a symbol of enlightenment in Arab culture and thought, and read it among the categories that appeared and popularized in Europe during the eighth and nineteenth centuries, which is the era known as the Enlightenment, and it appeared; indeed, European Orientalism flourished in its various schools.

Hence our fundamental problem that we raise in this article, to what extent was Taha Hussein affected by Orientalist thought? Is Orientalism having intellectuals or intellectual appropriation? What are the methodological and intellectual standards that were based on in writing, and from there received Taha Hussein's thought? Does adherence to methodological tools mean deviating from the prevailing cultural norms and patterns? Or is it that culturally dominant thought has the right to limit systemic tools?

Keywords: *Orientalist thought, Taha Hussein, Principle of assay, Similar.*

*** *** ***

مقدمة:

كانت بوصلة الاهتمام بالأدب العربي ونقده و فكره و ثقافته و دينه وعقيدته وأعرافه ومعتقداته موجهة من الغرب الأروبي إلى الشرق العربي، بداية من التماس الجغرافي الحاصل بين الإمارات الأندلسية والممالك الإسبانية، فالدولة العثمانية والغرب الأروبي لاحقا، وضرورة التعرف على الشرق المتفوق آنذاك من منطلق أنه العدو الغالب، وأروبا هي المغلوب. بدأ الاستشراق من خلال ترجمة القرآن الكريم أولا، ثم محاولة نقل المعارف العربية الاسلامية من مراكزها الرئيسية المتاخمة لأروبا أو الواقعة فيها كإسبانيا بظهور ما عرف ب"الدراسات العربية"[1] ؛ التي عملت على رسم صور مشوهة عن العرب والاسلام والشرق في أذهان الأروبيين، و تجلى ذلك من خلال الأعمال الأدبية الأوروبية التي تناولت الشرق بمحورين كبيرين، فهناك أعمال قامت على الغرائبية أو الفانتازية التي تصور الشرق بصور يغلب عليها عنصر الإثارة والتشويق غير الواقعي، والأعمال التي تعكس الروح القتالية، كما في الملاحم، وتحديدا (أنشودة رولاند) التي تصور الصراع الإسلامي – المسيحي، وتقدم صورة للإسلام كوثنية جديدة يعبد فيها ثلاثة آلهة منهم النبي محمد "صلى الله عليه و سلم" الذي وصلهم أن اسمه (ماهون) ، لتتضخم صورة العجائبية عن الشرق لاحقا من خلال ترجمة قصص "ألف ليلة و ليلة" إلى الفرنسية على يدي "جالان" سنة 1704م.

كانت هذه الصورة الأولى التي انطلق منها الاستشراق ليؤسس مدارسه المختلفة في كل أنحاء أروربا، و يرسم في ذهن الأروربي الصورة التي أرادها هو للشرق، و يغير معها أهدافه واستراتيجياته نحوه، بل ويفرض على الشرقيين صورة نمطية أرادها لهم، تصورها وجسّدها فعليا في واقعهم، حتى أصبح بعضهم ينظر إلى أدبه و ثقافته وفكره نظرة المستشرقين أنفسهم.

2 . في مفهوم الاستشراق:

يشير مصطلح الاستشراق "في مدلوله الأساسي أو المتداول إلى الاهتمام العلمي أو الأكاديمي الغربي بالثقافات الشرقية، أو الآسيوية تحديدا بما في ذلك الشرقين الأقصى والأدنى، بما يتضمنه ذلك الاهتمام من دراسة وتحقيق وترجمة. من ناحية أخرى تشير العبارة إلى توجهات في الفنون الغربية سواء التشكيلي منها أو الأدبي "استلهم" الشرق بمقتضاها ووظف فنيا. و قد طرأ تغير أساسي على مدلول المصطلح حين أصدر الناقد العربي

الأمريكي إدوارد سعيد كتاب الاستشراق (1978م)، اكتسى المصطلح بمقتضاه مدلولا آخر بعيدا عن الصبغة الحيادية التي تلبسته زمنا طويلا."[2]

والاسشراق كما يقدمه إدوارد سعيد، هو "جهاز ثقافي، هو عدوانية ونشاط محاكمة و إرادة للحقيقة والمعرفة، والشرق وجد من أجل الغرب، أو هكذا بدا لعدد لا يحصى من المستشرقين الذين كان موقفهم من الموضوع أبويا أو متعاليا صراحة.."[3]

فرغم الجهود التي لا يمكن القفز عليها و لا إغفالها في عمل المستشرقين، هناك أيضا جوانب سياسية ثقافية ترتبط بتوجيه عملهم، مثل التعصب أحيانا وعدم الحياد في أبحاثهم، يضاف إليها ثبوت وجود علاقة مباشرة بين عمل المستشرقين و سياسات حكوماتهم الاستعمارية[4]، فعملهم قد كشف النقاب عن كثير مما احتاجت إليه حكوماتهم عن عادات الشعوب و تقاليدهم و نسق تفكيرهم ودينهم وعقيدتهم وشريعتهم و تكوينهم الاجتماعي والقبلي.

أما المستشرق، فيحدده الجابري بناء على "جنسيته الثقافية" ؛ أي بناء على الثقافة التي يفكر بها، فالمستشرقون عنده يطلبون الشرق لأنهم يقعون خارجه، أي يفكرون في بعض قضاياه من موقع يقع خارج إحدى ثقافاته، وبالتالي لا يمكن أن ينتموا إلى الثقافة العربية لأنهم يفكرون في قضاياها من خارجها ، بل ومن خارج محيطها الخاص[5] ، مثلما هو الحال مع المفكرين العرب المشتغلين على الثقافات الغربية، لا يمكن اعتبارهم غربيون وسيظلون عربا.

1.2 الاستشراق في الأدب العربي:

إن أدب الأمم و تاريخها هو نقطة الارتكاز التي يُنطلق منها في تحديد حضارة هذه الأمم ومكانتها بين الحضارات الإنسانية عامة، و جذورها الثقافية التي أسست عليها مبادئها الأولى، و كذلك الأمر بالنسبة للأدب العربي حديثه وقديمه، و خاصة القديم، لأنه يعبّر عن فترة مجهولة من تاريخ العربي و اعتقاداته وعاداته و ثقافته من جهة، كما أن غياب أسانيد مادية توثق لتلك الفترة إلا ما وصلنا من رواية شفهية متوارثة متداولة، جعله مجالا خصبا لبث الاعتقادات والشكوك و التشويهات المختلفة لهذا الأدب مبررة أحيانا ومتكالبة ملغية مرات أخرى، من جهة ثانية.

ومع ذلك ظهرت دراسات هامة و مميزة من طرف المستشرقين للأدب العربي، بل إن بعضها قدّم خدمات جليلة لهذا الأدب من خلال تحقيق بعض الدواوين المخطوطة ونشرها،

ومنها من أرّخ لهذا الأدب كما فعل (بروكلمان) في تارخ الأدب العربي، فكان كتابه فتحا في التأسيس للدراسات التاريخية للأدب العربي، و على شاكلته ألف (شوقي ضيف) تاريخ الأدب العربي بأجزائه العديدة، بل إنّ هناك من أعلى من القيمة الفنية والأخلاقية لهذا الأدب، وعرّف الأمم غير الناطقة بالعربية بالأدب العربي من خلال الترجمة و النقل.

3.طه حسين و الاستشراق:

كان تأثير المستشرقين كبيرا في الأدب العربي كما في أدبائه و كتابه ونقاده، وهذا "طه حسين" يصرح بهذا التأثير في سيرته الذاتية الشهيرة "الأيام"، فالمستشرقون –حسبه- "ملكوا عليه أمره و استأثروا بهواه (و بذا) خرج من حياته الأولى خروجا يوشك أن يكون تاما لولا أنه كان يعيش بين زملائه الأزهريين و المدرعين و طلاب مدرسة القضاء وجه النهار و شطرا من الليل، لكن عقله قد نأى عن بيئته هذه نأيا تاما ، و اتصل بأساتذته أولئك اتصالا تاما"[6].

إن هذا التأرجح الذي يتحدث عنه العميد هنا يعود إلى اختلاف الرؤى والمناهج التي استعملت في شرح المعارف العربية و الغربية، مما أحدث شرخا فكريا لدى كثير من الباحثين و النقاد و المثقفين العرب المحدثين من بينهم عبد الرحمن بدوي و محمد مندور و ميخائيل نعيمة و أمين الخولي و غيرهم، و إن كان طه حسين هو أبرزهم جميعا نتيجة الأفكار التي تضمنها كتابه "في الشعر الجاهلي" و تناوله للقضايا التي كانت محل جدال منذ القدم، واستغلها بعض المستشرقين المتعصبين لتمرير بعض الأفكار التي تخدم ثقافة المركزية الغربية.

1.3. مفهوم الشرق في فكر طه حسين:

لا ينطلق "طه حسين" في تصوره للشرق من مفهوم جغرافي –كما يرى عبد الله إبراهيم- وإنما من اعتبار ثقافي[7]. فثمة مجالان ثقافيان: أحدهما "الشرق البعيد" و يقصد به الهند والصين، و اليابان، و الآخر "الغرب" الأروبي، وبينهما حسب طه حسين "الشرق القريب"، وهو مصطلح "مهجن" يأخذ اسمه من المجال الأول و وضمونه من المجال الثاني، و هذا المجال المهجن هو ما يصطلح عليه حاليا جغرافيا ب "الشرق الأوسط"، الذي يعتبره "طه حسين" امتدادا طبيعيا لمجال الغرب من ناحية ثقافية منذ الرومان . هذا التصور أشاعته الثقافة الغربية المتمركزة على ذاتها ، التي أعلت من مفهوم الغرب على أنه مكون ثقافي لا يمتثل أبدا لشروط الجغرافيا، و أوجدت له تعبيرا في ثقافة القرنين الثامن عشر و التاسع

عشر في أروبا، فكرة الفصل بين الشرق و الغرب استنادا إلى منظومة القيم الأخلاقية، والعقلية، والفكرية[8].

هذه الأفكار كان لها ما يسندها فلسفيا، من خلال الطرح الهيغلي الذين ميز بين الشرق "البعيد" و الشرق "القريب" و ألحق الثاني رمزيا بالغرب، وعلى ذلك استند الفكر الاستشراقي في بناء رؤاه و أفكاره، التي تلقفها رواد فكر التجديد العربي و على رأسهم لطفي السيد، سلامة موسى، و العميد (طه حسين).

لقد رأى هؤلاء الرواد و من حذا حذوهم ضرورة استعارة النموذج الغربي في "التحديث" و"التجديد"، نظرا لكونه قد حقق النهضة الأروبية و التقدم الصناعي و العلمي، فاصلين بين المعطيات التاريخية والثقافية والفكرية التي احتضنت التجربة الغربية، والمعطيات التاريخية و الثقافية و الفكرية التي كانت تعيشها الذات العربية/الشرق القريب.

2.3. علاقة الشرق بالغرب/ مقايسة أم تباين؟

لقد كانت العلاقة التي تربط الشرق بالغرب في رأي طه حسين أبعد من التاريخ الحديث، ولأن الشرق "القريب"/العربي يعيش حالة خمول و تراجع وتخلف، فهو يحتاج للغرب كي يوقظه من سباته ، "و يدرجه مرة أخرى في سياق الثقافة الغربية التي وجدت له مكانا طبيعيا منذ الإسكندر المقدوني، ودعما لهذا التصور يحاول طه حسين في "مستقبل الثقافة في مصر" أن يبرهن على العلاقة الوثيقة بين "العقل المصري" و "العقل اليوناني"، و على "شدة اتصال مصر باليونان القديم" وعلى "تشابه الإسلام و المسيحية في علاقتهما بالفلسفة" وعلى أن "العقل الإسلامي كالعقل الأروبي" وعلى التماثل في طراز الحياة المصرية و الأروبية، بحيث يكرّس دعوته لقضية مهمة وأساسية، وهي أن يمحو من قلوب المصريين أفرادا و جماعات هذا الوهم الآثم الشنيع الذي يصور لهم أنهم خلقوا من طينة غير طينة الأروبي، و فطروا على أمزجة غير الأمزجة الأروبية، و منحو عقولا غير العقول الأروبية[9].

لقد بنى طه حسين فكره على مبدأ التواشج العلائقي الحاصل بين الثقافة العربية والثقافة الغربية منذ القدم، فجذورها تمتد إلى الفكر اليوناني/الإغريقي القديم، و بالتالي ضرورة استعارة النموذج الغربي كما أشاعته الثقافة الأروبية المتمركزة على ذاتها، و تبناه المستشرقون و بثوه في أذهان مريديهم و الثقافات التي اشتغلوا عليها.

إن اعتقاد طه حسين الراسخ بكون الغرب هو المنقذ و المنجد من أدران التخلف، جعله يرى بأن سبب تخلف مصر هو علاقتها بالأتراك، فلو أنها بقيت على صفاء فكر اليونان لحقق الشعب المصري تقدمه ! يقدم هذه الفكرة في أطروحته للدكتوراه التي قدمها سنة 1917م بجامعة السوربون تحت عنوان: "فلسفة ابن خلدون الاجتماعية" حيث يقول: "إني أعتقد أنه يكاد يكون مؤكدا أن الترك العثمانيين لو لم يوقفوا سير الحركة العقلية في مصر مدة طويلة لكان الذهن المصري من تلقاء نفسه ملائما للأذهان الأوربية في الأعصر الحديثة، لاستطاع أن ينال –بل أن يقدم- قسطه من الرقي العام للحضارة. لكن سيادة الترك كانت عتبة كؤودا في سبيل التقدم. فنامت مصر بينما خطت أروبا خطوات كبيرة، ولم تستيقظ إلا بتأثير من الحملة البونابارتية المباركة، فنهضت واحتكت بالأوربيين الذين غدوا أساتذتها، و إني أعتقد بمنتهى اليقين أن تأثير أروبا، وفي مقدمتها فرنسا، سيعيد إلى الذهن المصري كل قوته و خصبه الماضيين"[10].

هذا الكلام الذي يبثه طه حسين في متن أطروحته للدكتوراه بقدر خطورته، بقدر ما ينم عن تشبع الرجل بالفكر الاستشراقي و الانبهار بالثقافة المركزية الغربية التي ترى في حملاتها الاستعمارية فتحا للدول و الشعوب التي غزتها واستعمرتها إما استعمارا مباشرا أو استعمارا و غزوا ثقافيا فكريا وهو أشد وقعا وخطرا و أدهى.

3.3. تنويرية الغرب/انهزامية الشرق:

في مقارنة الفكر الشرقي بالفكر الغربي، ينتهي طه حسين إلى دونية الفكر الشرقي وتعالي الفكر الغربي، لأن الأول مجرد تهويمات و الثاني ركيزته العقل الاغريقي، و بالتالي فالأول يبقى مجرد "فكر" و ليس "فلسفة" على عكس حال الثاني، إن الفكر الشرقي ملتبس بالتأملات الدينية المندهشة التي لا ينتظمها فكر تجريدي، و لهذا فإن "كان البابليون قد رصدوا النجوم و وصلوا من ذلك إلى نتائج قيمة، فهم لم يضعوا علم الفلك، و إنما هذا العلم اليوناني لم ينشأ عن النتائج البابلية، و إنما نشأ عن البحث اليوناني و الفلسفة اليونانية، ولئن كان المصريون هم الذين وضعوا علم الهندسة، وإنما اليونانيون هم الذين ابتكروه ابتكارا ".[11]

إن هذا الرأي الذي يضمنه طه حسين في كتابه "قادة الفكر" ينم مرة أخرى عن الدونية التي يشعر بها الرجل الشرقي- و إن كان مثقفا- أمام الفكر الغربي إلى درجة نكران

الذات و تحقير المنجزات، كما ينم عن التبني الصريح من الرجل للفكر الغربي، الذي عمل أقطابه و مستشرقوه على إقناع مختلف الطبقات المثقفة به، ليسهل الوصول بعد ذلك إلى عامة الناس، و عن طريق مثقفيهم، فطه حسين يكتب للمجتمع المصري، و المجتمع العربي، بالمختصر ل"الشرق القريب"، ومن زاوية اعتباره عميد الأدب العربي الحديث.

بل إن العميد لا يكتفي بهذا بل يتجاوزه للبحث في الأنساق الفكرية التي تتباين بين المجتمع الشرقي ولمجتمع الغربي انطلاقا من الفلسفة اليونانية القديمة، ف"بينما نجد العقل اليوناني يسلك في فهم الطبيعة وتفسيرها هذا المسلك الفلسفي الذي نشأت عنه فلسفة سقراط، وأفلاطون، وأرسطو طاليس، ثم فلسفة ديكارت، وكنت، و كونت، وهيجل، وسبنسر، نجد العقل الشرقي يذهب مذهبا دينيا قانعا في فهم الطبيعة وتفسيرها: خضع للكهان في عصوره الأولى، وللديانات السماوية في عصوره الراقية، و امتاز بالأنبياء كما امتاز العالم اليوناني الغربي بالفلاسفة"[12].

إن هذا الكلام للعميد لا يختلف عن رأي أبسط المستشرقين، بل قد يكون هو أكثر جرأة في طرح هذا الرأي منهم، باعتباره ابن هذا الفكر و هو أدرى بما فيه، و لكنه من جهة أخرى يردد آراءهم التي تنظر للشرق نظرة دونية عن الغرب، لأن الشرقي/المشرقي عاطفي خامل خامد، أما الغربي فهو عملي عقلي.

4. قضية الشعر الجاهلي/بين الثقافة العربية و المعطى الاستشراقي:

1.4. الشعر الجاهلي بين المستشرقين:

شغل الأدب العربي القديم بشعره و نثره كثيرا من المستشرقين الغربيين، فهناك من ولعوا به و احبوه و دافعوا عنه، و رأوا فيه فنا جميلا معبرا عن البيئة والأفكار و الأيديولوجيا التي اعتنقها الشاعر الجاهلي، ومن ثمة رسمها لغة فنية جميلة في قالب شعري، بل و تعدى الدفاع عن الشعراء إلى الدفاع عن رواة الشعر الذين حفظوا هذا الشعر من الضياع بالرواية و الحفظ، أبرزهم "حماد الراوية" الذي يقول عنه المستشرق "نولدكه" "من المغالاة أن نطالب رجلا مثل حماد الراوية أن يدقق في آلاف القصائد التي كان يحفظها تدقيقا علميا، وأن يرويها للخلف كما هي في نصها الأصلي"[13] ، محتجا في ذلك بأن الشعر المروى لابد أن تدخل عليه تغييرات كثيرة سواء من ناحية اللهجة التي يروى بها، أو ترتيب هذه القصائد والمقطوعات الشعرية فيما بينها حتى داخل القصيدة الواحدة، فالشعر المروي لابدّ أن

تدخل عليه كل أنماط التغيير لأنها معرضة لكل مصائر الأدب الشعبي، وهذا الرأي يتبناه مستشرقون آخرون.

بالمقابل، هناك من يرفض هذا الرأي، و يحتج بالتغييرات التي طرأت على القصائد والأشعار من ناحية اللهجات و الترتيب على أنها قصائد منتحلة وليست أصلية، و من هؤلاء المستشرق "مرجليوث Margoliouth" الذي نشر بحثا سنة 1925م بعنوان "أصول الشعر العربي"، وكان قد مهد لها بمقالات سابقة عن الموضوع مثل مقالة "محمد و ظهور الإسلام"، وفيها تحدث عن أن لغة القرآن تشبه لغة الشعر الجاهلي، و بالتالي فالشعر الجاهلي وضع بعد القرآن؛ "فإذا ذكر شاعر جاهلي عادات العرب في الحج أو الصوم أو ذكر الأفكار السائدة في الأديان السابقة وجاء القرآن بهذه الألفاظ، فإن مرجليوث سرعان ما يحمل ذلك على أن الشعر قيل بعد القرآن و على نسقه"[14].

كانت هذه المقالات تمهيدا لمقاله الذي دق فيه مسماره الأخير في نعش الأدب العربي القديم، متخذا من الوحي ذاته السند الذي يستند عليه في إدعاءاته ضد هذا الأدب، "إنّ محمدّا، الذي لم يكن يَعْلم الشعر، كان يدرك أن ما يوحى إليه لم يكن شعرا؛ بينما أهل مكة، الذين يفترض أنهم كانوا يعرفون الشعر حين يسمعونه أو يروونه، ظنوا بأن هذا الوحي كان شعرا. وكان ينبغي أن يتوقع العكس"[15].

إذا كان هذا رأي مرجليوث في اتهام العرب/قريش للنبي محمد (صلّى الله عليه و سلم) بقول الشعر و هم أعلم الناس بالشعر، فكيف يفسّر اتهامهم له بالسحر و الجنون وهو الرجل الذي ولد بينهم و شب فيهم وشهدوا هم أنفسهم بأخلاقه و صدقه !

يتحدث المستشرق مرجليوث أيضا عن الراوية حماد بنوع من الاستهزاء والمهانة قائلا: "ويروي ياقوت عن النّحاس (توفي سنة 331ه) أن المعلقات السّبع جمعها حماد هذا؛ و بودنا لو كان اكتشافها قد تم على يدي شخص آخر أدعى إلى الثقة و الاحترام"[16]، فهل الاشكالية عند هذا المستشرق كون حماد الراوية هو راوية الشعر الجاهلي أم أنه يرفض أصلا فكرة وجود الشعر الجاهلي.

ثمّ إنه يناقض نفسه مباشرة حينما يتحدث عن الراوية الثاني للشعر الجاهلي ويسمى جنّاد و يقول عنه أنه مثل حماد ، فـ "ثاني راوية للشعر القديم في الكوفة هو جنّاد، و كان

كحمّاد كثير الرواية قليل المعرفة"[17] ، فهل يعقل لشخص قليل المعرفة بهذا الوصف أن يضع شعرا بحجم الشعر الجاهلي أو بكمّه؟

يحاول مرجلوث مرة أخرى الربط بين مضمون المعلقات أو القصائد الجاهلية، وبين الحياة الاجتماعية التي عاشها العربي الجاهلي، و يرى أنها لا تعبّر عن مضمون هذه الحياة، كما يربط بين الألفاظ التي نسجت بها هذه القصائد وبين اللهجات العربية المحلية القديمة، بل إنه يذهب لأبعد من ذلك حينما ينقب عن مضمون الوثنية والشرك في القصائد الجاهلية معتمدا على ما وصل من كتاب "الأغاني" للأصفهاني، و مفسرا بعض الآيات القرآنية حسب هواه وباعتبار ما يخدم الفكرة التي يطرحها، ليصل إلى نتيجة مفادها أن الشعر الجاهلي شعر موضوع بعد الإسلام و ليس قبله، لأنه منسوج على منوال القرآن الكريم و متضمن لاعتقاداته[18] ، متجاوزا فكرة أن المسلم بعد إسلامه لا يردد ما يتعارض مع عقيدته، بل إن زوجته تحرّم عليه إن كانت مشركة حتى تؤمن.

2.4. قضية الشعر الجاهلي عند طه حسين/عرض:

من أشهر القضايا النقدية و الأدبية التي أثارها طه حسين في الأدب و النقد العربي الحديث، قضية الشك في الأدب الجاهلي، إن لم تكن هي الأشهر على الإطلاق. فالأدب الجاهلي باعتباره ديوان العرب، هو الركيزة الأساسية التي تبنى عليها الثقافة اللغوية العربية باعتباره أول ما وصلنا مكتوبا و محفوظا من العصر ما قبل الإسلامي، أما مسألة الشك فهي منهجية فكرية غربية، تنطلق من الشك في الفرضيات لإثبات أو نفي النتائج التي كانت تعتبر مسلمات سابقا، وإن كان مجالها هو العلوم الطبيعية و الفيزيائية ، فإن تطبيقها على العلوم الإنسانية ينبغي أن يخضع لما يسميه الجابري ب "تبيئة المصطلح"[19]؛ أي جعله مناسبا للبيئة الفكرية التي يستعمل فيها.

لقد كتب طه حسين في كتابه السالف الذكر (قادة الفكر) عن ما سماه "عبد الله إبراهيم" مبدأ المقايسة بين الشعراء اليونانيين كهوميروس والشعراء الجاهليين كامرئ القيس، معتبرا أن هؤلاء الشعراء الأفذاذ لم ينالوا حقهم من اهتمامنا و نصيبهم من تقديرنا، رغم أنهم مثلوا البداوة العربية التي تجلت في شعر "أمرؤ القيس والنابغة والأعشى وزهير وغيرهم من هؤلاء الذين نبخسهم أقدارهم، ولا نعرف حقهم"[20]، ليعود في موضع آخر و ينفي وجود هؤلاء الشعراء أصلا و إنما شعرهم انتحل انتحالا.

بدأ طه حسين كتابه و كأنما ينبه ذهن القارئ لاستقبال الجديد الذي بثه إياه العميد، فـ"هذا نحو من البحث عن تاريخ الجاهليين و لغتهم و أدبهم جديد لم يألفه الناس عندنا من قبل، و أكاد أثق بأن فريقا منهم سيلقونه ساخطين عليه وبأن فريقا آخر سيزورّون عنه ازورارا"[21] ، و القول لطه حسين.

وذلك ما حدث فعلا حينما بدأ العميد في التساؤل عن وجود شخصية امرئ القيس حقيقة أم أنها مجرد شخصية خيالية أسطورية تشبه شخصية هوميروس في الأدب الإغريقي، و هو الذي كان قبل حين يعلي من شخصيته في كتابه "قادة الفكر" فيقول: "وخلاصة هذا البحث القصير أن شخصية امرئ القيس أشبه شيء بشخصية الشاعر اليوناني هوميروس، و لا يشك مؤرخو الآداب اليونانية الآن في أنها وجدت حقا و كان تأثيرها قويّا باقيا، و لكنهم لا يعرفون من أمرها شيئا يمكن الاطمئنان إليه"[22] ، و يعود مرة أخرى لهذه النقطة حينما يتحدث عن عبيد بن الأبرص، فيصرح: "و أما عبيد فقد لمسنا من سيرته وما يضاف إليه من الشعر ما يعيننا على إثبات شخصية امرئ القيس و شعره فكانت النتيجة محزنة جدا ذلك أنها انتهت بنا إلى أن نقف من شعره نفس الموقف الذي وقفناه من امرئ القيس و شعره"[23].

إن طه حسين يلمح بكلامه هنا –و يصرح به في موضع آخر- بأن النحاة واللغويين والحفظة و الرواة والبلاغيين وأهل اللغة و التفسير والفقه وغيرهم من العلماء هم من وضع هذه الأشعار، و نسبوها للشعراء الجاهليين أمثال امرئ القيس و عنترة و طرفة و لبيد وعمرو بن كلثوم و زهير والنابغة و غيرهم، وهو كلام يبدو وكأنه مستعار من أفواه المستشرقين – كما وضحناه آنفا- وخاصة مرجليوث.

3.4. منهج طه حسين في بحث الشعر الجاهلي/بين هيمنة الو اقع و سلطة المنهج:

سياقات القراءة تتضارب عند طه حسين، فتنتهي إلى تعارض في النتائج، فافتراض الناظر بين المرحلتين البدوية عند العرب و اليونانيين، قاده إلى سلسلة من النتائج و هي وجود شعراء يونان و عرب يمثلون هاتين المرحلتين، وشعرهم هو بذور التطورات الأدبية و الفكرية اللاحقة عند الأمتين، و بما أن تاريخ الفلسفة الغربية استدرج أن بعض التأملات الفلسفية اليونانية وجدت في ملاحم هوميروس – و فيما بعد في أشعار هزيود- فإن مقياس التناظر لابدّ أن يطرد، كما يقول عبد الله إبراهيم- فيكون شعر امرئ القيس و النابغة و الأعشى

وزهير ممثلا لروح المرحلة البدوية في العصر الجاهلي عند العرب، و عليه انبنى الأدب و الفكر فيما بعد في القرون اللاحقة، و هذا يبرهن على وجود ذلك الشعر القديم[24].

و لكن هذه النتائج تصطدم بسياق قراءة ثانية، تنطلق هذه المرة من منظور الشك، فبما أن الأدب مرآة لعصره، حسب المناهج التاريخية و الاجتماعية التي أخذ بها طه حسين في بحثه، حيث أن قراءته للشعر الجاهلي لم تثبت حضورا لروح العصر في ذلك الشعر، فإنه بدل التشكيك في القراءة ذاتها، و إمكاناتها ووسائلها، ومنطلقاتها، و موجهاتها، ذهب إلى الشك في الشعر نفسه، و بعض الشعراء أيضا[25] .إن الشك في الشعر ووجوده ليس قصرا على الشعر العربي وحده، بل إنه طال الأدب اليوناني و الروماني القديم.

لقد نقض العميد الشعر الجاهلي نتيجة لتبنيه رؤية منهجية تنص على أن الأدب يجلي روح العصر وطبيعته التي تنعكس فيه، و لما وجد غيابا لروح العصر الذي ينسب له الشعر الجاهلي حكم عليه بأنه موضوع و منحول، و بما أنّ الشعر الجاهلي موضوع، لا يعتد به بوصفه وثيقة معبرة عن جملة الأنساق الثقافية ، و الاجتماعية والدينية لذلك العصر، فلابد من البحث عن تلك الأنساق في نص آخر، و هو القرآن الذي هو "أصدق مرآة للعصر الجاهلي، و نص القرآن ثابت لا سبيل إلى الشك فيه"[26].

وبناء على ذلك، يرى طه حسين أن القرآن الكريم يقدم أمثلة واضحة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية التي عرفها العصر الجاهلي، ذلك لأنه مصدر يتميز بالوثوقية و الصحة التاريخية بوصفه مرجعية شاملة للعصر الجاهلي، لكن طه حسين يعود ليناقض نفسه، بغرض إثبات منهجه حين يقول: "للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم واسماعيل، و للقرآن أن يحدثنا عنهما؛ ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة و القرآن لا يكفي لاثباتهما التاريخي، فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم إلى مكة، ونشأة العرب المستعربة" ويضيف "نحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية و القرآن و التوراة من جهة أخرى"[27].

إن الحديث عن مصداقية القرآن و اعتباره المصدر الموثوق الذي نعود إليه، ثم مناقضة ذلك بالتشكيك في إحدى الحقائق التاريخية التي وردت فيه لتتماشى مع المنهج المتبع في الدراسة ينتهي بنا إلى القول بتناقض الأحكام التي يقدمها طه حسين، و يرى عبد الله

إبراهيم أن مردّ ذلك إلى فاعلية "مبدأ المقايسة" الذي يعتمد عليه طه حسين، حيث أن العميد يعود للمقايسة بين القرشيين والرومانيين، "فإذا كان الرومان اصطنعوا أسطورة مؤداها أن "باينياس بن بريام" صاحب طروادة، هو الذي بنى روما، فما المانع من أن يصطنع القرشيون أسطورة مماثلة تقول بهجرة إبراهيم، وبقيام ابنه اسماعيل ببناء "الكعبة" في قلب مكة"[28].

لقد ردّ مبدأ المقايسة في فكر طه حسين إلى تأثره بالثقافة الغربية التي كان يتبنى كثيرا من أفكارها، بل إنه كان يصرّح بهذا التأثير ويعتزّ به و يكبره، ولا ضير في ذلك مادام مبدأ المثاقفة أو تفاعل الثقافات مهم في تشكيل الوعي النقدي لدى الناقد أو الكاتب، و لكن الأمر الذي يختلف فيه كثيرون هو "تحويل ذلك الموجه إلى "إيديولوجيا" تمارس دورها في ترتيب شؤون الفكر و توصلاته من جهة، و الدعوة إليه على أنه يمثل الحقيقة المطلقة و النهائية من جهة أخرى، وغالبا ما يحصل كل ذلك، حينما يتم تجريد ذلك الموجه من كل أبعاده التاريخية، والإعلاء منه بوصفه نموذجا صافيا و صحيحا يمكن الإفادة منه في كل زمان ومكان"[29].

لقد حاول طه حسين أن يقدم دراسة تحديثية للفكر و الأدب العربي، لكنه وقع في شراك ثنائية الإقصاء والاستبعاد من جهة، كما أنه لم يمتثل للمضمون الايديولوجي للمقروء.

5. الاستشراق في الأدب و الفكر العربي/بين القبول و الرفض:

لقد كان تأثير الاستشراق و المستشرقين بالغا في الأدب العربي و نقده، فعلى غرار طه حسين، احتفى عبد الرحمن بدوي بمقالات المستشرقين خاصة مرجليوث الذي يقول عنه: "و أخيرا خطا البحث خطوة جبارة بمقال كتبه "ديفيد صامويل مرجليوث" (...) استغل فيه نتائج النقوش الحميرية و العربية الجنوبية، وركز خصوصا على الدوافع الدينية في انتحال الشعر الجاهي والتغيير في روايته زيادة أو نقصا أو تحريفا"[30].

بل إن "بدوي" لا يكتفي فقط بالاحتفاء بمرجليوث و نتائجه، بل يتعداه إلى مهاجمة النقاد و الدارسين العرب لعدم أخذهم برأيه، و هجومهم –غير المبرر في رأيه- على طه حسين، مستدلا بما قدمه ابن سلام الجمحي نفسه في طبقات فحول الشعراء و إشارته إلى

وجود شعر موضوع و منحول في مصنفه النقدي؛ إذ ليست القضية بجديدة على الأدب العربي القديم، فما مسوغ الهجوم في رأي "بدوي" إلا الدهشة الحمقاء و الغفلة والجهل المطبق عليهم .

من جهة أخرى، هناك من الدارسين العرب من رفض الاستشراق والمستشرقين المغالين، متسائلين: لماذا يمس الاستشراق حقل الأدب والثقافة والفكر تحديدا؟ و يجيب محمود شاكر:" إن هذه "المعارك" ليست في حقيقتها "أدبية" أو "ثقافية" أو "فكرية" بل هي معارك "سياسية" تتخذ "الأدب" و "الثقافة" و"الفكر" سلاحا ناسفا لقوى متجمعة أو لقوى في طريقها إلى التجمع، ولأن أمضى سلاح في يد عدونا هو "سلاح الكلمة""[31].

إن هذا الخطر الذي يستشعره شاكر من الاستشراق و المستشرقين لم ينتج عن وهم، بل عن آراء و أفكار هؤلاء المستشرقين في العرب لغة وأدبا وفكرا ودينا، فهذا رينان يشكك في الإسلام متهما و مهاجما إياه بأنه عدو الحضارة و العلم و العقل، و ذهب ليوتي يثير الخصومة بين العرب و البربر ويشكك في القرآن واللغة والأحكام، ويقيم محاكم البربر العرفية بدل محاكم الشريعة الإسلامية، و اتجه لافيجري يقيم المدارس التبشيرية ويحارب العربية ويدعو المغرب العربي إلى التمسك بحياته التي كان عليها قبل إسلامه.[32]

بالإضافة إلى محمود شاكر، هناك ثلة من النقاد و المثقفين العرب الذين انبروا للدفاع عن الأدب و الثقافة والفكر العربي ضد إحدى أخطر الهجمات على الهوية العربية الإسلامية من قبل المستشرقين الغربيين، مستغلين أبناء العربية لتحطيمها من الداخل، و من هؤلاء المنافحين عنها "فريد وجدي" الذي ردّ على كتاب طه حسين بتطبيق المنهج القرآني مقابل المنهج الديكارتي الذي انتقاه طه حسين، بالإضافة عباس محمود العقاد و محمد حسين هيكل و مالك بن نبي الذي يصفه صاحب كتاب "فلسفة الاستشراق" بأنه "ظاهرة فريدة في الفكر العربي الإسلامي المعاصر"[33].

ذلك أن مالك بن نبي قد نبه للآثار غير المباشرة التي تركها الاستشراق في اللاوعي الفكري العربي، فرغم دوره الكبير في تعريف المثقفين العرب غير الناطقين بالعربية بالفكر و الثقافة العربية، إذ جعلهم يحافظون على شخصيتهم الإسلامية و يتجاوزون مركب النقص الذي كانوا يعانونه أمام الحضارة الغربية، إلا أن هذا المديح الذي قدمه المستشرقون للتراث العربي الإسلامي قد جاء بعواقب خطيرة للغاية لأنه كان بمثابة مخدر يجعل النائم يواصل

نومه إلى مالا نهاية له، و كلما حول أحدهم الاستيقاظ تقدم له جرعة تنويم من قبل الاستعمار الذي يرعى الاستشراق، و يتم تشخيص القضايا من طرفه و تقديم الحلول للمسلم في إطار ما يسميه بن نبي "الصراع الفكري في البلاد المستعمرة"*، إذ المسلم يحتاج اليوم إلى تجديد الفكر و ليس تجديد الأشياء.

ويدعو مالك بن نبي للعودة إلى منهج القرآن، نظرا لما أحدثه في المناخ العقلي العربي القديم من قفزة فكرية جعلت الأعرابي الجاهلي يتسيد الحضارة القديمة، لذلك لابد من العودة إلى التجربة الإسلامية الأصيلة و الاستفادة منها، ذلك أن الأدب المطنب في المدح والتمجيد لماضينا ليست إلا وسائل لفت في المجال السياسي أو في المجال الفكري، حتى يلتفت العالم الإسلامي عن أهم مشكلاته ألا وهي مشكلة حضارته، و ذلك كله حتى يستورد قيمه الثقافية من الخارج، لأن المجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسية ، لا يمكنه على أية حال أن يصنع المراد الضرورية لاستهلاكه.[34]

فإذا كان معظم النقاد العرب ينظرون للاستشراق كحركة ارتدادية تهدف إلى تدمير الماضي التاريخي والفكري للعرب، فإن مالك بن نبي –مفكرا- ينظر إليه باعتباره حركة استباقية/مستقبلية لتدمير أي حركة فكرية تقدمية للعربي المسلم، و في هذا يختلف و يتميّز عن معظم الدراسات العربية.

6. خاتمة:

من جهة:

- على الرغم من عدم دقة كل المستشرقين في معرفة اللغة العربية وعدم تمكنهم من كنه علومها و آدابها وفنونها فإننا نعترف بفضلهم وأناتهم و صبرهم فيما جاؤوا به، و يمكننا ذلك من الاستفادة من تجربتهم و نهجهم و خبرتهم في الدراسات اللغوية و الأدبية.

- يتبين من اتجاهاتهم المختلفة أنهم بحثوا في كل ما يتعلق بالأدب العربي، فعالجوا مشكلات و أثاروا أخرى، و تأثر كثيرون منهم بعلمائنا القدامى و إن لم يعترفوا بذلك.

- من خلال تتبع دراسات المستشرقين نستجلي بوضوح أثرهم في نهضتنا العربية الحديثة من خلال تحقيق الكتب، و إعادة مراجعة دواوين و مصنفات نقدية وأدبية عربية قديمة، والدفع إلى إصدار المجلات و الجرائد و غيرها.

من جهة أخرى:

- يلاحظ الدارس اهتمام المستشرقين المبالغ فيه بالإسلام و القرآن و النبي محمد (صلّى الله عليه و سلم)، و تعصب أغلبيتهم ضد الظواهر الإلهية.

- اهتمامهم بمجالات تأثر الأدب العربي القديم بالآداب الأخرى، فيبالغون في شأن التأثر ويقللون من شأن التأثير. كما أن دراستهم للأدب العربي دراسة تاريخية خضعت لمقياس الزمن والتقلبات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية العربية وليس لمعيار الفنية والجمالية.

- يحس المتتبع لبحوثهم عنايتهم الواضحة بالحركات الفكرية و السياسية والفرق الدينية التي ظهرت في العالم العربي الإسلامي خلال عصوره المتعددة، وبحث أصول العرب وأعراقهم وشخصياتهم المختلفة، و محاولة النفاذ إلى غور هذه الشخصية.

تركيب:

- تأثر الكثير من الدارسين العرب؛ نقادا و كتابا و باحثين و مثقفين بالاستشراق الغربي، فمنهم من أخذه كما هو ، و منهم من غربله قبل الاستفادة منه.

- كان تلقي طه حسين للفكر الاستشراقي تلقيا انعكاسيا، حيث تبنى آراءهم ومنهجهم كما قدموه، مما جعله يصطدم بكثير من النقاد العرب الذين لم يتقبلوا هذا التبني معتبرين إياه غير مبرر.

- وقع طه حسين أثناء تلقيه للفكر الاستشراقي بين مطرقة الثقافة العربية وسندان المنهج الديكارتي الذي اعتمد عليه، فانحاز للثاني على حساب الأول، و كان ينبغي العكس.

- كان اختيار المستشرقين للأدب و الثقافة و الفكر العربي التراثي موضوعا للدراسة اختيارا متعمدا، حيث لم يتم الاشارة إلى العلوم الطبيعية و الطبية والفلكية و غيرها من المنجزات العلمية التي حققها الفكر العربي التراثي، في تجسيد صارخ لدونية الروحانية الشرقية أمام العقل الغربي، و تأكيد للمركزية الثقافية الغربية.

- تباينت ردود أفعال المثقفين و الدارسين العرب حول الاستشراق؛ حيث أن هناك من رفضه رغم الايجابيات التي لا يمكن بأي حال من الأحوال إغفالها، لأنه يعمل تحت غطاء سياسي ايديولوجي و إن كان بواجهة علمية منهجية، هدفه الحفاظ على السبات التي يعيشه العالم العربي.

7. الهوامش:

1- ميجان الرويلي ، سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، إضاءة لأكثر من سبعين تيارا و مصطلحا نقديا معاصرا، المركز الثقافي العربي، ط:5، بيروت/ الدار البيضاء، 2007م، ص 34.

2- نفسه، ص35.

3- محمد فاروق النبهان: الاستشراق، تعريفه، مدارسه، آثاره، المنظمة الإسلامية للتربية و العلوم والثقافة، إيسيسكو2012م، ص77.

4- نفسه، ص70.

5- محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط:12، بيروت، لبنان، يناير2014م، ص7.

6- طه حسين: الأيام، مركز الأهرام للترجمة و النشر، القاهرة، 1992م، ص349.

7- عبد الله إبراهيم: المطابقة و الاختلاف، بحث في نقد المركزيات الثقافية، **المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط:1، بيروت، 2004م، ص472.**

8- نفسه، ص473.

9- نفسه، ص474.

10- نفسه، ص479.

11- طه حسين: قادة الفكر، دار العلم للملايين، بيروت، 1989م، ص37.

12- عبد الله إبراهيم: المطابقة و الاختلاف، ص479.

13- يحي وهيب الجبوري:المستشرقون و الشعر الجاهلي، بين الشك و التوثيق، دار الغرب الإسلامي، ط:1، بيروت، 1997م، ص15.

14- نفسه، ص49.

15- عبد الرحمن بدوي: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، دار العلم للملايين، ط:1، بيروت، نوفمبر1979م، ص90.

16- نفسه، ص103.

17- نفسه، ص104.

18- نفسه، ص120-128.

19- محمد عابد الجابري: المثقفون في الحضارة العربي، محنة ابن حنبل و نكبة ابن رشد، مركز دراسات الوحدة العربية، ط:4، بيروت، لبنان، 2014م، ص9.

20- طه حسين: قادة الفكر، ص15.

21- طه حسين: في الأدب الجاهلي، دار المعارف، مصر، 1969م، ص61.

22- نفسه، ص199.

23- نفسه، ص209.

24- عبد الله إبراهيم: المطابقة و الاختلاف، ص481.

25- نفسه.
26- طه حسين: في الشعر الجاهلي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1926م، ص126.
27- نفسه، ص26.
28- عبد الله إبراهيم: المطابقة و الاختلاف، ص482.
29- نفسه، ص483.
30- محمد مصطفى هدارة: موقف مرجليوث من الشعر العربي، ضمن كتاب: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، ج:1، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، تونس، ص399.
31- أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق، و أثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998م، ص681.
32- نفسه.
33- نفسه، ص693.
*- هو عنوا ن كتاب للفكر الجز ائري "مالك بن نبي".
34- أحمد سمايلوفتش: فلسفة الاستشراق، ص694.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊